



Hassan Rashik.- 'Alqarīb wa al-ba'ūd, qarnun min al-'anthropulūjiā bi al-Magħrib. Ta'rib wa taqdim Ḥasan at-Ṭāleb (ad-Dār al-baydā'-Beirut: al-markaz at-thaqāfi li-alkitāb, 2018), 408 p.

حسن رشيق.- القريب والبعيد، قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب، (الدار البيضاء-بيروت: المركز الثقافي للكتاب، 2018)، 408 ص.

صدرت عن مؤسسة المركز الثقافي للكتاب بالدار البيضاء (2018) الترجمة العربية للمؤلف الذي نشره الباحث الأنثروبولوجي حسن رشيق باللغة الفرنسية منذ سنة 2012، تحت عنوان:

Hassan Rachik: Le Proche et le Lointain. Un Siècle d'Anthropologie Au Maroc (Marseille: Éditions Parenthèses/& Aix-en-Provence: MMSH), 2012, 268p.

ونشرت الترجمة المذكورة التي أنجزها وقدم لها حسن الطالب تحت عنوان: القريب والبعيد، قرن من الأنثروبولوجيا بالمغرب، سنة 2018، وتقع في 408 صفحة. ويقدم صاحب الكتاب حسن رشيق قراءة تفكيكية اهتم من خلالها بمجرد دقيق استقصى فيه الرصيد الأنثروبولوجي الذي تم إنتاجه حول المجتمع المغربي، فمكث ذلك على امتداد تسعة فصول من جمع شتات المادة الأنثروبولوجية التي خصت المغرب عبر التجربة الميدانية بالدرس والتحليل، من المرحلة الكولونيالية إلى ما بعدها. وقد حرص على إعادة قراءتها وتمحيصها وجردها والبحث في ثنايا أسئلتها ومواضيعها ومفاهيمها ومناهجها وخلفياتها و"إيديولوجيتها" ومحدداتها النظرية والإثنوغرافية، منتقلا في ذلك من الماكرو إلى الميكرو بطريقة تنم عن خبرة وحرفية لا يتسرب إليها أدنى شك. وهذا ما مكن حسن رشيق من إدراج اسمه وإسهاماته المتلاحقة في موقع أصيل داخل الجماعة العلمية المنخرطة في الحقل الأنثروبولوجي بالمغرب على مستوى البحث والتدريس، حيث واصل مسيرته العلمية بتقديم كثير من الإسهامات الأصيلة منذ ثمانينيات القرن الماضي إلى اليوم، كان لها حضور قوي ومكنت من تسليط الضوء الأنثروبولوجي على عدة مواضيع وقضايا وظواهر ظلت أحيانا حبيسة القراءة الكولونيالية.

لقد أعاد كتاب حسن رشيق فتح النقاش بمحاورة تفكيكية للإرث الأنثروبولوجي الكولونيالي وغير الكولونيالي، عبر طرح إشكاليات "جدلية" متصلة بخصوصية البحث والتفكير الأنثروبولوجي وسؤال "الهوية" عند الباحث المحسوب على هذا الحقل المعرفي. وقد

عبر الباحث عن "تحفظه" من قبعة "الباحث الأهلي"، أي المحلي، لكونها تشوش في رأيه على موضوعية الباحث الأنثروبولوجي وتحول دون تلبية رغبته في الحياد، كما تعرقل إمكانيات ولوجه إلى التفاصيل ذات الصلة بمواضيع بحثه، بغية ملأ البياض والكشف عن نقط الظل التي تكتنف الظواهر والقضايا والأسئلة الغنية بالإشكاليات المرغوب في دراستها. وبالتالي فإن الكتاب -موضوع هذا العرض- يحاور من جهة، "المنجز" الأنثروبولوجي المتعلق بالمغرب، ويعيد قراءته بعيدا عن خصوصية مرحلة الاستقلال وهاجس الرغبة في "نزع الصبغة الاستعمارية"، عن مضامينه ووجهات نظره، كما يحاور من جهة أخرى، الباحثين ممن تمسكوا بقبعة الباحث "الأهلي" و"المحلي" و"الوطني"، ولا يخفي "خيبة أمله" تجاه محطات كثيرة قطعها الإنتاج الأنثروبولوجي بالمغرب لكنه بقي في رأيه عالقا ومتذبذبا بين المحلي والكوني.

ويُستشف من العنوان، وجود قلق معرفي عميق يلازم حسن رشيق داخل هذا النص استمر حتى النهاية، إذ حاول في هذا الكتاب إعادة فتح أبواب قديمة-جديدة للبحث الأنثروبولوجي وضوابطه وخصوصيته الكونية، ويدعو الباحثين "ضمنيا" إلى الاتصال أكثر بمختبر هذا الحقل المعرفي ويعني به الميدان، والتخلص ما أمكن من بقايا القراءات القبلية والمسلّمات وأحكام القيمة التي يقع في شباكها الباحث المتقمص لشخصية "الباحث الأهلي" والمتمسك بانتائه إلى المجتمع موضوع البحث قبل الشروع في إنجاز دراسته وأثناءها ثم بعدها.

يُستهل الكتاب بمقدمة أولى من تحرير المترجم، ومقدمة ثانية لصاحب الكتاب، ومقدمة ثالثة تنفتح على مجموع المحددات السوسيولوجية والنظرية التي تحكمت في إنتاج المعرفة الأنثروبولوجية بالمغرب، ثم ينتقل المؤلف لتقييم الوضعية الإثنوغرافية مع مجموعة من الأعمال قسمها إلى ثلاث حقبة رئيسية:

- الحقبة ما قبل الكولونيالية: برواها الأوائل أمثال مثل شارل دو فوكو، وموليراس، وسلمون، وميشو بلير، وإدوارد ويسترمارك وآخرون.

- الحقبة الكولونيالية: ويمثلها كل من إميل لاووست، وروبير مونطاني، وبرونو، وهاردي، وبيرك وآخرون.

- الحقبة ما بعد الكولونيالية: كيلنير، هارت، واتروري، جيرترز وآخرون.

ويضم الكتاب كما سبقت الإشارة إلى ذلك، تسعة فصول رئيسية، قسمها الباحث ورتبها بعناية، تعكس محتوياتها أهمية القراءات النسقية التي قام بها المؤلف، ونجاعته، لكم هائل من الدراسات والأبحاث والمونوغرافيات والكتب والمقالات التي عاجلت سلسلة من المواضيع

والظواهر ذات الصلة بحقل الأثرولوجيا، فحاولت -على حد تعبير المؤلف- فهم المحددات الثقافية والأطر والقوالب النظرية المتحكمة في إنتاج المعرفة والمادة الأثرولوجية ذات الصلة بالمجتمع المغربي.

ويستهل حسن رشيق الفصل الأول من كتابه بعنوان دال: "من الاستكشاف إلى المونوغرافيا" مع الرحالة شارل دو فوكو، الشخصية المعروفة برصيداها الإثنوغرافي الزاخر حول المغرب، وذلك لمجموعة من الاعتبارات من بينها الجدل والنقاش المعرفي المتعدد الذي أسهم به عبر هذا الرصيد الغني بالمعطيات الواردة في رحلته الشهيرة بالمغرب. وفي هذا الصدد، يسلط الباحث الضوء على الظروف والسياقات المرافقة لرحلة دو فوكو الإثنوغرافية إلى المغرب، فعبّر فيها عن إعجابه بطبيعة المعرفة وعمق الملاحظات الواردة في نصه الشهير، بحكم إسهامها الفعال والمفصلي في إتاحة فرصة التعرف على المغرب وسكانته، خصوصا ما تعلق منها بالعادات والتقاليد. كما وقع الحرص في هذا الفصل، على طرح نقاش معرفي ومنهجي تناول فيه حيثيات إنجاز هذه الرحلة وملابساتها باستحضار بعض آليات البحث الإثنوغرافي عند دو فوكو والمتصلة بالمعرفة ومختلف طرق التنكر والتخفي التي يختارها الرحالة عند إقباله على استكشاف عوالم جديدة من مجالات المجتمع المغربي المنقسم وقتئذ إلى مجالين هما: "بلاد المخزن" و "بلاد السبية". وقد أثارت هذه الأخيرة فضول دو فوكو فوجه رحلته الاستكشافية إلى أراضيها، وركز مهمته عليها بغية جمع المعطيات ووصف خصوصيات المجال والمجتمع بالأراضي غير الخاضعة مباشرة لسلطة المركز.

وانتقل الباحث مع موليراس ليفتح أبواب نقاش ثان يتمحور حول الإثنوغرافيا عن بعد، ويسلط الضوء على اهتمامه بمجموعة من الأوصاف المتعلقة بالمغاربة من خلال "الإسقاط التأويلي" الذي يحدد وجود أربعة "أعراق" بالمغرب تتمثل عند موليراس في الأمازيغ والعرب واليهود والزنوج. كما نعت هذا الإثنوغرافي الفرنسي المغاربة بـ"الكذب" و"الشعوذة" وذكرهم بأوصاف أخرى عديدة ذات صلة بتأويله وقراءته للإسلام من خلال الممارسة المغربية التي يصفها بـ"الجانب البشع في طبائع المغاربة". ثم انتقل حسن رشيق إلى تذييل الفصل الأول بما وصفه بـ"الانقلاب" الذي أحدثته سلسلة الأرشيفات المغربية مع كل من جورج سالمون وإدوارد ميشو بيلير في إنتاج سلسلة من المونوغرافيات حول المجتمع المغربي. ويركز الباحث على الانتقال الذي حصل في هذا الباب، أي الكيفية التي وقع التحول بواسطتها من الرحالة المستكشف إلى الباحث المقيم. ولا يخفي علينا المؤلف في هذا الباب، أن ما سرع عملية الانتقال هذه هو حضور رغبة قوية واستعداد فكري كبير يسعى إلى تجاوز

التأملات السوسولوجية الوضعية، كما يلاحظ بأن المونوغرافيات التي تعامل معها قد هيمن عليها طابع الجرد والاستقصاء.

أما الفصل الثاني، فقد عنونه حسن رشيق كالتالي: "الاثنوغرافيا والنفور"، ويفتتحه مع إدموند دوتي الذي اعتبره منعظا له دلالة بالغة في تاريخ استكشاف المغرب ومعرفة أحواله الاجتماعية عن كثب، إذ كان سباقا لتطبيق نظريات المدرسة الاثنوغرافية الإنجليزية والمدرسة الفرنسية السوسولوجية على الظواهر الدينية التي اهتم بملاحظتها في المغرب، وأيضا لإسهامه في مجلة الحولية السوسولوجية (*L'Année sociologique*). ويؤكد الباحث حرص دوتي على الاضطلاع بدور الوسيط بين فعاليات البحث المكتبي وأطوار البحث الميداني، لاقتناعه بمحدودية الأولى أمام ضرورة الثانية وأهميتها. وقد أسهمت كتب دوتي وملاحظاته في إتاحة إمكانية "الاحتفاء بالكوني"، سواء من خلال كتابه "مراكش" أو "في القبيلة" حيث طاف في جولات بين عوالم "الإسلام المغاربي" أو "الكركور"، كما اهتم بدراسته لتكديس "الحجارة" و"المقدس" و"الطقوس السحرية" و"الأسلمة"، إلى غير ذلك من المفاهيم الأساسية والمعطيات الواردة في نصوص دوتي، والتي رفعت الستار عن طبيعة علاقته وتفاعله مع الساكنة المحلية، أي "الأهالي". ويعمق حسن رشيق النقاش في هذا الفصل بالانتقال إلى إسهام دوتي في تحديد طبع المغاربة، خصوصا سكان القبائل والتركيز على تعداد الاختلافات الثقافية القائمة بينهم وبين سكان سهول الغرب والمدن. كما يتحدث دوتي عن بعض سمات الحضارة الأمازيغية ويعدد صفات الإنسان الأمازيغي، خصوصا وأنه يقدمه بعبارة "المسلم الماجن"، وبالتالي فإن دوتي يرى بأن الإسلام يخترق جميع مجالات الحياة الاجتماعية وتفصيلها، وبذلك تحقق تأطيره لجميع زوايا الخريطة الأثربولوجية ذات الصلة بحياة المغاربة وجل المواضيع المتعلقة بانشغالهم المتنوعة. وقد وقعت الإشارة في هذا الصدد، إلى ما قد يحدث عادة نتيجة للقيام بهذا التأطير الديني لسلوك المغاربة وممارساتهم.

ويخصص الباحث الفصل الثالث لمعالجة موضوع الممارسة الدينية من قبل المغاربة، بينما أفرد الفصل الرابع للخوض في نقاش واسع ومكثف يظل مفتوحا إلى اليوم، وهو موضوع الأمازيغية كإطار ثقافي وسياسي. وهو الموضوع نفسه الذي تابع معالجته في الفصل الخامس، حيث توغل بطريقة عميقة في محاولة لتفكيك ما سماه بـ "الروح الأمازيغية"، إلى جانب التركيز على استنطاق الممارسات الطقوسية وتأويلها عند الأمازيغ، باعتبارها "فسيفساء اجتماعية وسياسية". أما الفصل السادس، فقد اهتم فيه حسن رشيق بتوضيح حيثيات "الامتياز" الذي حظي به بيرك وأعماله التي ركزت على استنطاق خصائص العقل القانوني المغربي، فكشف عن الطابع البنيوي لأعمال بيرك ككل والتي تتسم بإيقاع يتمحور على "ذهاب وإياب" متكرر،

يموقع عملية الانتقال في سياقه بين الخاص والكوني. ومن ثم فقد وقع الانتقال إلى المرحلة الثانية، وهي الحقبة الكولونيالية التي تميزت بتحرك الأنثروبولوجي ومواجهة المعطيات بطريقة مباشرة، تتوخى التعامل المباشر مع الساكنة المحلية والأهالي بالميدان المدروس، دون الحاجة إلى أي قناع للتخفي وراءه، وذلك خلافا لما شهدته المرحلة الأولى ما قبل الكولونيالية في هذا الباب. وبهذا الانتقال في طريقة تعامل الباحث الأنثروبولوجي مع المجتمع المغربي، وقد دشنت هذه المرحلة عدد من الأنثروبولوجيين، ومنهم على سبيل المثال روبرت مونطاني ولاووست وروني باسيه وبرونو وهاردي وبيرك وآخرون. كما أن المؤلف لم يغفل عن تأكيد الدور المحوري الذي لعبه الماريشال ليوطي في مراقبة الواقع الميداني للمغرب وإشرافه المباشر على هندسته والتخطيط له، عبر التتبع عن كثب للحقل العلمي، وبالعامل على استدعاء واكتشاف مجموعة من الأسماء التي خدمت المشروع الكولونيالي ورصدت البنية الاجتماعية والثقافية والذهنية للقبائل آنذاك.

وقدرت الباحث على إبراز مجموعة من الأنساق النظرية والمنهجية التي تحكمت في صياغة مفهوم الطقوس والمعتقدات وأشكال غزيرة من الخبرة الميدانية، فإن ما ميز هذه المرحلة أيضا هو الاهتمام بوصف تفاصيل الواقع انطلاقا من الميدان ونقلها إلى النصوص والمونوغرافيات، وهي المنهجية التي أسعفت مجموعة من رواد هذه المرحلة في تحديد المعنى العلمي للدين الشعبي وتعريفه مثلا عبر التركيز على مفهومي الطقوس والممارسات، وأيضا دراسة البنيات القبلية ثقافيا واجتماعيا وسياسيا ودينيا بالتركيز على دراسة وحدة للقياس والمقارنة وهي "تقبيلت"، وهو توظيف وقع التفكير فيه بعمق من الناحية السوسولوجية.

وفيما يخص مرحلة ما بعد الكولونيالية، فقد حرص حسن رشيق على تشریحها مع الانقسامية من خلال القيام بإطلاقات على إسهامات كل من: إرنست كيلنير وجون واتربوري وكليفورد جيرتز في الفصلين السابع والثامن، وأيضا في جزء مهم من الفصل التاسع. وتتميز هذه المرحلة من الإنتاج الأنثروبولوجي في رأيه بتشكيلها نقطة تحول في خريطة مسار المعرفة الأنثروبولوجية بالمغرب، وبحدوث انتقال على مستوى النقاش في السجلات الفكرية والأكاديمية من الحديث عن "الديموقراطية الأمازيغية" إلى الخوض في منعرجات النظرية "الانقسامية". ولم تقتصر هذه المرحلة أيضا على التوجه فقط نحو دراسة النسق السياسي بالمغرب وآليات إنتاجه، وإنما تجاوزته إلى مستوى الانفتاح على الثقافة المغربية عبر آليات الأنثروبولوجيا التأويلية، وبالتالي إلى محاولة تحديد المعالم ذات الصلة بمفهوم الثقافة وما سمي أيضا بخصوصيات الإسلام المغربي، أي تتبع الدينامية الدينية في سياق مختلف أشكال الحياة الدينية الجماعية ودوائرها بالمغرب.

إن ما ميز أيضا مرحلة ما بعد الكولونيالية، أنها قد شهدت كما يؤكد على ذلك، حسن رشيق إقبال مجموعة من الباحثين الأنكلوساكسونيين على دراسة المجتمع المغربي، وتأطير الأنثروبولوجيا التأويلية لحقل إنتاج المعرفة حول المغرب، وهي العملية التي أسهمت في توفير قراءات جديدة ومغايرة لكثير من التفاصيل الأنثروبولوجية المتصلة بالذهنية والممارسة المغربيتين.

وينتهي حسن رشيق في كتابه إلى خلاصة مركزية تهم موقفه من مسألة التعميم ومستقبل الأنثروبولوجيا، داعيا بقوة إلى ضرورة الاتصال بالواقع الميداني، والتحرر من سيطرة "النموذج". ومن جهة أولى، فإن ما يميز هذا العمل، هو اتصال صاحبه بإنتاج المعرفة الأنثروبولوجية حول المغرب، ومن جهة ثانية، اشتغاله وانشغاله بإعادة تمحيص "المنجز حول المغرب"، وهو ما يوضحه تركيزه على استحضار مجموعة من النصوص "الأساسية" التي تناولت على مدار ثلاث مراحل رئيسية تاريخ الفكر الأنثروبولوجي بالمغرب وهي: مرحلة ما قبل الكولونيالية، والمرحلة الكولونيالية، وما بعد المرحلة الكولونيالية. وهي هندسة دقيقة خطط لها حسن رشيق بإتقان، وطبقها في دراسة شمولية حرص فيها على استقصاء وجرد وتحليل شتات حصيلة هذا الإرث الأنثروبولوجي الذي توفر حول المغرب.

حنان حمودا

جامعة محمد الخامس بالرباط